

الفصل الرابع

الوجه الجديد للحرب

إن الجيش الذي نحاربه يختلف عن الجيش الذي تدرّبنا أمامه.

الفريق: وليم والاس

قائد الفيلق الخامس من جيش

الولايات المتحدة في العراق، 2003

عندما تغير العالم تغيرت معه الخطوط الأمامية - ساحات المعارك ومشاهد العمل العسكري - برغم أن عدداً كبيراً من القادة في الجيش لم يلاحظوا التغيرات في حينها، وكان ذلك متوقعاً.

خلال السنوات الثلاث والثلاثين الأولى من عمر الأمم المتحدة، من 1945 إلى 1978، لم تجر سوى ثلاث عشرة عملية لحفظ السلام أو المراقبة كانت تهدف إلى نزع فتيل الأزمات وبناء الاستقرار. وفي العقد التالي، من 1978 إلى 1988، لم تطرح الأمم المتحدة أية عملية من هذه الأنواع، لكن منذ ذلك الحين تضاعف عدد عملياتها إلى أن وصل منذ عام 1988 حتى وقتنا الحالي إلى سبع وأربعين عملية.

وقد حدثت زيادة مماثلة في الأنشطة الإنسانية الدولية في المرحلة ذاتها. ولأن كثيراً من هذه العمليات كانت تواجه مجموعة من المشكلات الإنسانية والأمنية أصبحت تعرف «بعمليات الطوارئ المعقدة».

وعلى الرغم من تزايد الأعمال الإنسانية وإجراءات حفظ السلام، سمح للدول الفاشلة أو الدول العاجزة ذات المشكلات المستفحلة أن تنزلق إلى مستوى الأزمة - نقطة اللاعودة - في حين كانت الدول المعارضة القادرة تتعاس عن التدخل. وكان هذا دليلاً آخر على التغير الزلزالي الذي سببه انهيار النظام العالمي القائم على قوتين عظميين.

عندما خرجت الأزمات عن السيطرة، اختارت أمتنا وقتها مرة أخرى أن تزج بجيشنا في تدخلات تفتقر إلى التفكير المتروحي. في وقت لم تكن قواتنا المسلحة مستعدة لها استعداداً خاصاً. وفي تلك الأيام الأولى في «عدم النظام العالمي الجديد»، كانت قواتنا المسلحة تحاول إعادة صياغة نفسها في استجابة للانخفاض السريع في القوى والميزانيات. ولم تكن القيادة العسكرية تتوقع الدخول المفاجئ في مهام غير تقليدية ولا ترحب بذلك.

وفي تصديهم للتحدي الجديد، قرر هؤلاء القادة اتخاذ المسار الأقل جهداً. وكان أيسر الحلول هو التقليل من قيمة هذه المهام الجديدة - التي كانت تسمى في الأساس «عمليات عسكرية غير حربية» Military Operations Other Than War ويعبر عنها اختصاراً بالحروف MOOTW وتتنطق موتوا (mootwa) وقالوا لأنفسهم «إن مهام موتوا ليست حرباً حقيقية. لذلك لا ينبغي علينا أن نعيدها اهتماماً حقيقياً». أو كما صاغها جنرال رفيع المستوى: «المقاتلون الحقيقيون لا يقومون بعمليات الموتوا». فبالنسبة للقوات المسلحة كانت أعمال الحرب تدور حول عمليات قتال تقليدية أساسية، وذلك ما أرادوا أن يبقى محل التركيز. وهم ينظرون إلى هذه المهام الجديدة باعتبارها

إزعاجاً مؤقتاً لا يستحق أكثر من بعض التعديلات الثانوية في التعليمات والتدريب والتعليم والتنظيم.

لكنهم استخدموا الموتوا في الصومال والبوسنة وهاييتي وبنجلاديش وتيمور الشرقية ورواندا وأماكن عديدة غيرها. وسواءً أحبوا هذه الأنواع الجديدة من العمليات أم لم يحبوها، أصبحت جهودنا العسكرية تتركز عليها. وهي تتطلب أن يتمتع الضباط والجنود بأنواع مغايرة تماماً من التدريبات والرؤى والقدرات فساحة المعركة مختلفة والخطوط الأمامية مختلفة والخندق مختلف.

ساحة المعركة الجديدة

جاءت أول مشاركة لي في هذه المهام الجديدة الغربية عام 1991 في عملية غوث اللاجئين الأكراد شمالي العراق. وبرغم أنني لم أكن على دراية تامة بها آنذاك، فقد تحولت عمليات غوث اللاجئين إلى مؤشر ونموذج لساحات المعارك الجديدة فيما بعد الحرب الباردة. وكانت بالنسبة لي أنا أيضاً نقطة تحول رئيسة أخرى: فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي أقوم فيها بعمليات في واحدة من ساحات المعارك الصعبة والمعقدة والجديدة والمختلفة هذه، تلك الساحات التي تتميز بأبعاد كثيرة غير متوقعة ومحيرة. وقد جعلتني عمليات الغوث أدرك أننا قد لا نحارب أبداً حروباً تقليدية مرة أخرى - مثل الحرب العالمية الثانية وكوريا وحتى فيتنام - التي كانت السمة الرئيسية فيها هي مواجهات القوى العسكرية المنظمة تصل في ذروتها إلى مجموعة من المعارك الكبيرة.

عندما شاركت في عمليات الإغاثة، وجدت نفسي مستغرقاً في أنشطة وأعمال يومية غير حربية بنسبة من 99% إلى 100% وبدلاً من التركيز العسكري المحض، صرت الآن أتعرض للقضايا السياسية والاقتصادية والإنسانية والاجتماعية وقضايا الهيئة الدولية والإعلام وقضايا المنظمات غير الحكومية. وكانت معظم هذه القضايا تقع خارج إطار الخبرة والتعاليم والتدريبات العسكرية. وكنا نتعلم ما نحتاج معرفته في الحال.

مع ذلك لم تكن القضايا في حد ذاتها أو عددها هي ما أدهشني في المقام الأول هناك، وإنما تعقد هذه القضايا وأن التعقيد يمتد ويؤثر على كل شيء، إذ لا يوجد حدث بمعزل عن باقي الأحداث، فكافة الأمور تتشابك وتتداخل.



في أبريل من العام 1991، حتى ونحن نحفل بانتهاء حرب الخليج الأولى، كانت الأزمة الكردية تبدأ شمالي العراق. ووسط الجو المغمم بالفرح، لم تهتم بقية دول العالم بالمأساة الوشيكة إلا بقدر ضئيل... حتى سمع عنها وزير الخارجية بيكر، وسافر بنفسه لتفقد الموقف. وبعد زيارته ببضع ساعات، صدرت الأوامر للقيادة الأوروبية بالعمل (وقد تلقينا المكاملة لأن قاعدة عملياتنا يفترض بها أن تكون في تركيا التي تقع في نطاق القيادة الأوروبية، وكنا قد أجرينا عدداً من العمليات منها أثناء حرب الخليج). كنت مكلفاً بدور رئيس في العملية:

حيث كنت نائباً للقائد في أيامها الأولى، وبعد ذلك عندما اتسعت، صرت رئيساً للأركان.

عندما وصلنا إلى تركيا، كنا نعي أننا لن نلتزم التزاماً تاماً بعملية عسكرية تقليدية، ومع ذلك شهدنا مهمة عسكرية ومنظور حربي لم يصعب علينا تفهمه؛ إذ ثار الشعب الكردي ضد استبداد صدام حسين، فاتخذ صدام إجراءات صارمة وسحق الثورة وأجبر الأكراد على الفرار إلى الجبال. وكان علينا إبعاد العراقيين وحماية الأكراد، وتوفير الأمن لأنفسنا ولغيرنا ممن يقدمون العون. وإن لم يذعن جيش صدام لمطالبنا سيكون رد قواتنا واضحاً.

في بداية العملية، كنا نعرف ما علينا عمله وكيفية القيام به، وكنا مستعدين لكل شيء نتوقعه على الأرض. كانت لدينا هيئات تابعة للأمم المتحدة (مثل المفوضية العليا للاجئين) وهيئات تابعة للولايات المتحدة مثل مكتبنا الخاص بمعونات الكوارث الخارجية، وكانت معنا أيضاً ستون منظمة غير حكومية منها «أوكسفام» و«كير» و«أطباء بلا حدود»، وقوات تحالف من ثلاث عشرة دولة أرسلت قواتاً مسلحة. وكنا نتوقع أن بإمكاننا التعامل مع كل ذلك.

وجاءت التعقيدات الحقيقية فيما بعد.

فما إن وصلنا حتى أضيفت المهام الإنسانية إلى مهامنا العسكرية. وكان المطلوب منا إنقاذ الأرواح والمحافظة على الأمن؛ إذ كان الأكراد في أعالي الجبال في حالة يرثى لها في ظروف بالغة القسوة. فالتناس

يعيشون في خيام وسواتر مؤقتة ويتضورون جوعاً. وكانت الأوضاع الصحية مزرية مع تفشي الأمراض، ووفاة المئات - وربما الآلاف.

وبرغم أن المهام الإنسانية لم تكن جزءاً عادياً من أعمالنا، تعلمنا كيف نوزع الطعام والمياه وأماكن الإقامة والرعاية الصحية الأساسية. وعرفنا كيف نهتم بحاجات الشعب الملحة وذلك ما اعتبرناه عملنا الأساسي: «عندما تقع الكارثة، نطعم الناس، ونعد مكاناً لإقامتهم، وبذلك تنتهي مهمتنا ونخرج من هنا». وقد أعدنا هذا الجزء من العملية وبدأنا فيه بنجاح.

أما ما لم نكن مستعدين له فهو التعقيدات السياسية الشديدة والمستمرة التي واجهتنا، فالمهمة التي اعتقدنا أنها ليست إلا مهمة مباشرة كانت تتحول إلى عملية مغيرة معقدة لا تشبه أي عملية عسكرية مررنا بها، وسرعان ما اتخذت الأزمة التي توقعنا أن نعالجها «على الفور» عدة أبعاد محيرة تتطلب إجراءات قد تستغرق منا شهوراً - وربما أعواماً - لإنجازها، وقد تركنا خلفنا حلاً مؤقتاً يشمل مناطق حظر جوي، ومناطق أمنية ظلت هكذا لمدة اثني عشر عاماً.

البعد الثقافي

للأكراد أشكال متعددة: فهم قبائل وجماعات بينهم اختلافات اجتماعية وسياسية، وهناك بين الأكراد متعلمون ومتقنون ومنهم غير ذلك. ومن ينتمي منهم إلى المدن والمناطق الحضرية، أقل اعتياداً على الأحوال القاسية ممن ينتمون إلى المناطق الريفية، وكان تكيفهم أصعب

مع ظروف المنفى الجبلي القاسية، و كانت هذه الاختلافات تتطلب إجراءات تتسم بالحساسية و الحرص على أصعدة عديدة، ولم يبد أن الإغاثة الإنسانية ستكون أمراً سهلاً و بسيطاً.

الأبعاد السياسية والدبلوماسية

كانت هذه هي أول مهمة واجهتها تتضمن عناصر سياسية ودبلوماسية مهمة، ولم تكن الأخيرة.

تم تعيين مستشار سياسي لقواتنا - وهو ممثل لوزارة الخارجية، ووظيفته تقديم المشورة للقائد فيما يتعلق بالقضايا السياسية الحساسة ومواقفنا منها. وكان لدينا كذلك فريق اتصال من سفارة الولايات المتحدة في أنقرة يرأسه نائب رئيس البعثة، وهو الرجل الثاني على المستوى الدبلوماسي هناك.

كان من الواضح أن هذه العملية لم تكن عملية عسكرية محضة، وأن القضايا السياسية والدبلوماسية الحساسة سيكون لها ثقل شديد في حساباتنا.

يعيش ملايين الأكراد شمالي العراق، وملايين غيرهم يعيشون في جنوب شرقي تركيا، وملايين آخرين يعيشون في سوريا وإيران. ويشعر جميع الأكراد بهوية عرقية وقومية قوية، ويأملون في إقامة دولة كردية - كردستان. ولسنوات عديدة سببت جماعات إرهابية كردية مثل جماعة PKK أضراراً لا يمكن التسامح معها في تركيا. فخشية الوجود الكردي المهدد للاستقرار في تركيا، جعلت الأتراك يتعاملون بقسوة مع

مسألة تدفق الأكراد من العراق. وجوهر الأمر، لم يكن هذا الموقف ليتغير، فوجودنا داخل تركيا في حد ذاته، وكل جانب من جوانب مهمتنا، كان حساساً وشائكاً. وكان على سفارتنا في أنقرة التفاوض بشأن إيجاد تسوية مؤقتة مع الأتراك توفر لنا الحرية اللازمة للعمل كي نتمكن من إتمام مهمتنا. وفي نهاية الأمر، وافق الأتراك على وجودنا، لكن كان واضحاً أنهم قبلوا ذلك على مضض شديد.

في الجهة الجنوبية من الحدود التركية العراقية، كان علينا إبعاد الجيش العراقي. ولكي نمنع المواجهة خلال إجبارهم على التراجع، كان لابد لنا من إنشاء مركز لتسيق عسكري - وهذا تفاعل آخر صعب ومعقد - فلم نكن هناك لإيقاع الهزيمة بجيوش صدام - فقد قمنا بذلك فعلاً - وإنما كانت جهودنا تنصب على إنجاز مهمتنا بدون مواجهة عسكرية، وقد نجحنا في تحقيق هذا الهدف إلى حد بعيد (برغم تعرضنا لمواقف تتسم بالخطورة مع العراقيين). كانت الحرب قد انتهت في الجنوب، ولم يكن العراقيون على استعداد للاشتباك معنا في الشمال.

كان للأكراد منظومة عسكرية وسياسية خاصة بهم، وكانت الميليشيات التابعة لهم تسمى «البشمرجة» - ومعناها «من يواجهون الموت». وهم مقاتلون أشداء في حروب العصابات، واعتادوا تحمل مشاق المعارك. وعند المواجهات المباشرة كانوا أكثر من أنداد لجنود صدام. فهل يمكن أن يتعاملوا بمودة؟ وهل يمكن أن يتعاونوا؟ أم أنهم سيضعون العراقيين؟

كان الحزبان الكرديان الرئيسان هما الحزب الديمقراطي الكردي (KDP) بزعامة مسعود البرزاني، والاتحاد الوطني من أجل كردستان (PUK) بزعامة جلال طالباني. وبرغم أن كلاهما كان يسعى لتحقيق الاستقلال الكردي، كان لكل منهما أسلوبه وأجندته السياسية، كما أنهما كانا متنافسين في الماضي.

لم يكن لدينا أي علم مع من سيكون تعاملنا. وفي غضون ذلك كانت الكارثة الإنسانية تتفاقم، وكان كل فرد في المخيمات قد يئس من الحصول على الغذاء والماء والدواء. وكان الأطفال وكبار السن يموتون.

من الواضح أننا سنحتاج لمن يساعد على استقرار أوضاع الناس في مخيمات اللاجئين في الجبال، وأن يقوم بالتنسيق مع الأكراد - وهي مهمة منطقية بالنسبة لقوات خاصة تم تدريبها على التعامل مع السكان المحليين. كانت المجموعة العاشرة من القوات الخاصة (ثلاث كتائب) بقيادة الكولونيل بيل تانجني قد جاءت من أوروبا والولايات المتحدة، واتجهت للعمل في المخيمات على الفور. ولم يرحل أصحاب القلنسوات الخضراء إلا بعد أن قاموا بإنقاذ آلاف الأرواح.

كان من أولى مهام هذه الكتائب البحث عن قادة في المخيمات، فاقتربنا من الناس الذين كان طبيعياً أن نتحدث إليهم أولاً: المحامين والأطباء ومن يتحدثون اللغة الإنجليزية ومن تلقوا تعليماً غربياً. لكن أصحاب هذه المهن ليس لديهم السلطة أو النفوذ اللازم لتسيير الأمور. ثم قمنا بالبحث عن زعماء سياسيين - مثل زعماء الحزب الديمقراطي الكردي والاتحاد الوطني من أجل كردستان - لكننا لم نحرز نجاحاً

أكبر كثيراً من المرة السابقة، إذ لم يكن الزعماء السياسيون زعماء قبليين، بل كانوا يشغلون مكاناً مختلفاً في النظام الكردي.

وبينما كنا نصارع تلك العراقيل، جاءنا الفرج في شخص «نيلجن نيسبت» وهي ضابط في الجيش، صارمة وصريحة، وكنت أعرفها من قبل في القيادة الأوروبية. كانت تركية الأصل (وكان والدها جنرالاً تركياً) وهاجرت إلى الولايات المتحدة، والتحقت «نيل» بقواتنا المسلحة وأصبحت ضابطاً في الاستخبارات. كانت تتحدث اللغتين التركية والكردية، وقد قالت لي مفسرة: «جنرال زيني، ينبغي أن تفهم المنظومة الاجتماعية للأكراد، فإننا نحاول التواصل معهم بأساليب لا تتناسب مع ثقافتهم، فقد أسأتم اختيار من تخاطبون» - وهي نقطة كنا قد بدأنا نفهمها بالفعل - وأردفت قائلة: «إنكم تفكرون مثل سكان الغرب. فالمجتمع الكردي مجتمع قبلي، وهم يستمعون أكثر إلى زعماء قبائلهم».

ثم عثرت لي على معلومة كردية قامت بتفسير كل ما نحتاجه لفهم المجتمع الكردي: القبائل، والمنظومة السياسية، وصناع القرار، وشرحت لنا كيف وأين نجد شيوخ القبائل وكبار السن أو الحكماء «الأجاس» . كان الزعماء الذين وجدنا مشقة كبيرة في العثور عليهم يقومون طوال هذا الوقت بما كانوا يقيمون به طوال أجيال لا حصر لها، يجلسون على الأبسط في مؤخرة خيامهم، ويعقدون المحاكمات، فبدأ جنود القوات الخاصة عندئذٍ في عمل ما تدريبوا جيداً على القيام به: جلسوا على الأرض فوق الأبسط وأكلوا لحوم الأغنام مع «الأجاس»، وتعاملوا معهم بود. وكان هذا جواز مرور، وتلاه تعاون أكبر.

بعد التحالف

منذ عام 1991، صارت لدينا خبرة عريضة في العمل مع قوات التحالف، وكنا نعرف كيفية بناء التحالفات وتنظيمها، ليتم التعاون والتنسيق بين الجميع.

مع ذلك، كانت هناك قضايا معينة لا بد من حلها في كل عملية تحالف - القضايا العسكرية الخاصة بقابلية العمل المشترك، وقواعد قضايا الاشتباك، وقضايا المساءلة، والقضايا السياسية والقضايا التقنية (مثل اتصالات العمل المشترك: إذ كان علينا أن نجلب ستة عشر طناً من معدات الاتصال العسكرية الأمريكية لضمان الاتصال بالجميع)، والقضايا الثقافية، بل وحتى نقاط الخلاف.

في أي تحالف كانت هناك مستويات مختلفة من السيطرة العسكرية. فقد يكون لقوة تابعة للولايات المتحدة سيطرة تكتيكية على وحدة تابعة للدولة «س»، أو ربما كانت لها سيطرة إجرائية، أو قيادة فعلية (كما في حالة قوات الولايات المتحدة). ويقصد بالتحكم التكتيكي أنني لا يمكنني إعطاء الوحدة إلا توجيهاً تكتيكياً في إطار مهمة متفق عليها. ويقصد بالتحكم الإجرائي أن بإمكانني تغيير مهمتهم (وكانت بعض الدول تتحفظ على ذلك). أما القيادة الفعلية فلا تعني سوى القيادة الفعلية، وقد جاءت بعض القوات بقيود سياسية على ما يمكن أن تقوم به أو على المهام التي يمكنهم قبولها. لذلك عندما قمنا بالتخطيط، كان علينا أن نتأكد من أن الضباط من كل الدول المشاركة قد أدمجوا في هيئة أركان التحالف.

نتج عن حلولنا لهذه المشكلات بعض العلاقات الغربية، وكان علينا في معظم الأحيان أن نرتجل ونجمع الأمور المتنافرة لنجعلها تعمل معاً.

في وقت ما جاء الجنرال كولن باول - وكان حينها رئيس أركان القيادة المشتركة - ليتفقد العملية. وأثناء عرضي أمامه للموقف، أطلعتة على مخطط دقيق صممناه بعناية يبين علاقات القيادة، وكان به كافة أنواع خطوط السلطة التي كانت تظهر أكثر مباشرة وأشدّ تنميماً من الموقف الحقيقي. فأدرك الجنرال باول بوضوح، وهو رجل شديد الذكاء، أن الواقع ليس بمثل نظافة الخريطة. فنظر إليّ وقال ضاحكاً: «ما هي علاقات القيادة هنا؟ هل هي سيطرة إجرائية؟ سيطرة تكتيكية؟» فحركت قدمي خجلاً وقلت: «سيدي إنها سيطرة يدوية، فقد قمنا بمعظم هذا العمل بالمصافحة باليد». فأعجبه ذلك، والتفت إلى قائدنا، الجنرال جون شاليكاشفيلي قائلاً: «هذا ممتاز لهذه الحقيقة! إنكم تتمتعون بالمرونة وتتكيفون، وتجدون طريقة لتحقيق الاتفاق. تلك هي الطريقة التي كان عليكم اتباعها لكي تتم هذه المهمة الخطيرة». كان الجنرال «شالي» خبيراً في اكتساب دعم التحالف، وفي الدوران حول القضايا السياسية الصعبة التي تعوق التعاون العسكري.

بعد المنظمات غير الحكومية

في الماضي، عندما كنت كولونيل، لم تكن لدي فكرة عن المنظمات غير الحكومية، ولم أكن قد سمعت بها قط.

أما اليوم فأني كولونيل في الجيش يعرف ما هي المنظمات غير الحكومية، وربما يكون عمل معها. وحتى لو لم يكن، فسيعرف كم يحسنون تقديم المساعدات والرعاية الصحية والغذاء والمأوى والمياه النظيفة وكل ضرورات الحياة الأخرى لأناس يواجهون مخاطر عظيمة، ويعيشون في ظروف بالغة الخطورة. ولقد أثبتت المنظمات غير الحكومية منذ زمن طويل أنها ضرورة ملحة ولا غنى عنها. وهناك بعض المهام التي لا يمكن لغيرها أن يقوم بها على النحو المنشود.

كان أول لقاء لي بالمنظمات غير الحكومية في عمليات الإغاثة. ولم يكن لقاءً سلساً تماماً، لكننا جعلناه معاً لقاءً ناجحاً.

إن المنظمات غير الحكومية، على نحو ما، دول مصغرة؛ فلكل منها ثقافة فريدة بصورة أو بأخرى، ولكل منها مهمة محددة، ولكل منها تاريخ، وقواعد ومستوى أداء، وميثاق، وصياغة واضحة للرسالة التي تعمل في ضوئها. لذلك غالباً ما يتطلب العمل مع المنظمات غير الحكومية نوعاً من الحساسية الثقافية التي يحتاجها العمل مع الشعوب الأجنبية أو الثقافات المغايرة. وعليك أن تفهم ثقافتها وتقدرها وأن تتمتع بحساسية للأبعاد المتعددة غير المشتركة بين ثقافتك وثقافة هذه المنظمات. وينبغي أن ترى ما يفعلونه فيها، وكيف تم بناء هذه المنظمات ليقوموا بهذا العمل، وكيف صاروا إلى ما صاروا إليه.

إن معظم المنظمات غير الحكومية تتسم بالشرف وتتمتع بالنوايا الحسنة... ويعمل بها بشر رائعون. ولكن ذلك لا يعني أنهم لينو العريكة دائماً.

كنت عادة أقول ذلك مازحاً: إنني كلما التقيت بعاملين في منظمات غير حكومية، أكون أمام أناس يختلفون عني ثقافياً. فما هي فتاة شابة قد تكون متخرجة للتو في كليتها، ترتدي «الجينز» وهداءً مفتوحاً وقميصاً (تي شيرت) يحمل عبارة «أنقذوا الحيتان»، وأنا هنا أرتدي خوذة وسترة واقية من الرصاص وأحمل سلاحاً، وتتدلى من ملابسي كل أنواع المعدات العسكرية الأخرى، وعلى الفور نصبح أباً يتكلم مع ابنته وابنة تتكلم مع أبيها. ولكن بعد وقت قصير تبرز لدينا مشكلة: فأنا أخبرها بأمور لا تود سماعها، وهي تخبرني بأمور لا أود سماعها، وبأساليب لا أريد سماعها. فالأمر لا يتوقف عند عدم اتفاقها معي وحسب؛ بل تتخذ موقفاً متشككاً يثير حفيظتي. وأسلوبى العسكري يثير غضبها. فأنا كالموسيقار الكلاسيكي وهي كمطربة الأغاني الشعبية، والتناغم بيننا عسير للغاية.

ليس لدينا خيار سوى تجاوز خلافاتنا، ففي عمليات الإغاثة هم يحتاجون إلينا ونحن نحتاج إليهم. وعلى المستوى العملي، كان هذا يعني أن ننشئ في الحال، وللمرة الأولى، منظومات تسمح للثقافة العسكرية وثقافة المنظمات غير الحكومية بالوجود معاً، (وهي منظومات أثبتت فاعلية كافية عند استخدامها فيما بعد في مهام إنسانية أخرى)، ولم يكن هذا سهلاً... وخاصة مع تنظيمات تختلف اختلافاً بيناً عن بعضها البعض.

تأتي المنظمات غير الحكومية في تنوع مذهل. فستون منظمة غير حكومية على الأرض تعني ستين منظومة مختلفة. وذلك على عكس المؤسسة العسكرية حيث لا مركزية ولا سفينة مركزية.

هناك منظمات قائمة على أساس قومي، ومنظمات أخرى قائمة على أساس دولي، وبعض المنظمات علمانية، وبعضها له مرجعية دينية. وتأتي هذه المنظمات أو تلك لأداء مختلفة، فثمة من يركز على المياه، وغيرها يركز على المأوى أو الرعاية الطبية أو بناء القدرات - إقامة مؤسسات مثل النظم التعليمية ونظم الرعاية الصحية أو النظم القانونية.

في بعض الأحيان، تتنافس المنظمات ذات المهام المتشابهة بعضها مع بعض. فالمنظمات غير الحكومية التي تختص بالرعاية الطبية قد تنشئ ورشة عمل، على سبيل المثال، في المناطق نفسها لتقوم بمهام متماثلة بدلاً من إيجاد مواقع يمكن لكل منها أن تؤدي فيها أدواراً متميزة. كذلك فإن كافة المنظمات غير الحكومية تتنافس على جمع التبرعات.

وتتمسك كل هذه المنظمات باستقلالها، وتريد أن تكون بنيتها في الحد الأدنى، ولا تحب القواعد ولا المذاهب، وإنما تحب المرونة وحرية التفكير والتصرف حسب الموقف. كما أنها تقاوم محاولات ضمها جميعاً في منظمة وحيدة.

إننا لم نواجه مشكلات تتعلق باختلاف الثقافات - أو تعارضها أحياناً فحسب، بل كانت لدينا قضايا مرتبطة بسياسة العمل وقضايا على المستوى الإجرائي، وقضايا التنسيق الجوهرية. وقد مرت علينا كافة أنواع المواقف المختلفة؛ فميثاق الهيئة الدولية للصليب الأحمر يلزم الصليب الأحمر بالحفاظ على الحياد التام، ومن ثم لا يمكن مشاهدتهم يعملون مع الجهات العسكرية، لأن ذلك قد يفهم منه

انحيازهم لجانب ما أو لموقف معين، وكان علينا احترام ذلك. لكن كان لابد أن أتفهم أن للعاملين في الصليب الأحمر احتياجات لن يستطيع تلبيتها أحد سوانا، وكان لابد من وجود مستوى ما للتنسيق.

إن القوات المسلحة تستطيع تجهيز إمكانيات طارئة في نطاقات وبسرعات لا يمكن أن تبلغها المنظمات غير الحكومية، ومن ناحية أخرى تعطي المنظمات غير الحكومية عمقاً لفهم الاحتياجات والمتطلبات والإمكانات اللازمة للعودة إلى الوضع السوي على المدى الطويل، وهو ما ليس في وسعنا كقوات مسلحة.

تشكو المنظمات غير الحكومية من أن القوات المسلحة، برؤيتها الأحادية وتنظيمها المسبق، تفتقد التفاصيل الدقيقة الخاصة بالأعمال الإنسانية وأحداث ما بعد الكوارث. ومن وجهة نظرهم أننا نضع منظومات غير قابلة للنقل والتحويل، وأنا نجعل من نحاول مساعدتهم يعتمدون على المساعدات التي نقدمها اعتماداً شديداً، أما المنظمات غير الحكومية فلها أسلوب مختلف. إذ إنها تبدأ بالمساعدة الإنسانية: فعليك أولاً أن تتقذ الأرواح المعرضة للخطر، ثم تنتقل إلى ما يسمونه «المساندة» بأسرع ما يمكن. والفكرة هي أن تخلف وراءك منظومات يمكن للناس إدارتها بأنفسهم، أي حسب القول المأثور «لا تعطيههم سمكة؛ بل علمهم الصيد».

كان اللاجئون الأكراد في الجبال في احتياج بالغ للمياه النقية. وبإمكان القوات المسلحة أن تأتي لتنشأ وحدات «روبو» ROWPU – وحدات تنقية المياه الأسموزية المعكوسة – ليبدأ تدفق المياه النقية في

الحال. لكن عندما تغادر القوات المسلحة، تذهب وحدات الروبو معها. وعلى العكس من ذلك، يمكن لمنظمة مثل «أوكسفام» أن تأتي وتنشأ أنظمة أطول بقاءً، وتستمر في العمل بعد مغادرتهم، (فإن إحدى تخصصات هذه المنظمة هي إنشاء أنظمة المياه).

ولقد مرت بنا أمور مماثلة تتعلق بالرعاية الطبية، فقد جلبت القوات المسلحة أحسن أنواع تجهيزات الرعاية الطبية - وهي أفضل كثيراً مما كان الأكراد يعرفونه في وطنهم. ثم جاء أعضاء منظمة «أطباء بلا حدود» وغيرهم بمنظومة للرعاية الطبية أقل تعقيداً، ويمكن للأكراد الاحتفاظ بها.

تحتاج المنظمات غير الحكومية إلى الأمن في محيط عملها حتى تؤدي مهامها على نحو فاعل، ونحن نريدهم أن يكونوا في أمان. لكن عدداً كبيراً من هذه المنظمات - مثل منظمة الصليب الأحمر - يحظر عليها إقامة علاقات «وثيقة» معنا. وغيرهم يريدون الحماية، لكنهم يرفضون قبول القيود أو العلاقات التي تتضمنها هذه الحماية. فكيف نقوم بتربيع هذه الدوائر؟

في بعض الأحيان، يكون كل ما بوسعنا عمله هو إبلاغهم بالمكان الذي نعمل فيه، وبما نعمله، وبما هو آمن أو غير آمن، لكننا نشارك باستطاعتنا في الاستخبارات والمعلومات، ونحاول إيجاد مناطق آمنة لهم ليعملوا فيها.

هناك خلاف واستياء متبادل بين القوات المسلحة والمنظمات غير الحكومية. فعندما برزت الأزمة الكردية في وسائل الإعلام،

واحتشد الأمريكيون في الوطن - كما يفعل الأمريكيون دائماً - وقاموا بجمع الأموال والملابس: «علينا أن نساعد الأكراد، سنجمع صناديق من السترات».

كان هذا أمر رائع ويتسم بالكرم. لكن كان علينا بعد ذلك أن نتعامل مع كل صناديق السترات هذه عند وصولها إلى تركيا، ونضعها جميعاً في أقل عدد ممكن من مهابط الطائرات.

وعلى نحو مفاجئ، كانت بعض الطائرات تحلق فوقنا دون إعلان سابق للتزود بالوقود وتطلب السماح لها بالهبوط. فأين كان يمكن أن نجعلها تهبط؟ فقد كانت لدينا بالفعل طائرات عسكرية على الأرض. كنا قد انتهينا من وضع جداول شحن مواد الإغاثة، ولا مكان لدينا لهم، لكن لم نستطع أن نطلب من هذه الطائرات العودة من حيث أتت، فوقودها قد نفذ. لذلك هبطت الطائرات، وعلمنا أن بعض المنظمات التطوعية تعاقبت مع هذه الطائرات في الولايات المتحدة لتحمل صناديق السترات، ولم تكن كلها قد وضعت في حزم ليسهل نقلها. لم تكن في حاجة إلى سترات، فلا فائدة منها للأكراد؛ إذ لم يكن الجو بارداً. وحينها صار هؤلاء القوم الذين يتمتعون بنوايا حسنة للغاية، عائقاً أمام طائرات الدعم التابعة للقوات المسلحة على الأرض، وأمام الطائرات التي تحمل الغذاء الذي كان الأكراد في شدة الاحتياج إليه. ولأن السترات لم تكن مقسمة إلى حزم، ولم يكن لدى الناس القادمين معها على الطائرة وسائل لإنزال هذه الشحنة، كان علينا أن نختار إما إرسال معداتها الخاصة بالتعامل مع المواد العينية - أو ناش الشوكة - أو إنزال هذه الحمولة يدوياً.

وبعدما تولينا الاهتمام بكل ذلك، طلب ممثلو المنظمة الخيرية ضمانات لوصول السترات سليمة إلى الأكراد، فكان علينا أن نقول لهم: «كلا، هذا لن يحدث، فالأكراد لا يحتاجون إلى سترات، والأولوية للغذاء والدواء، لأن لديهم ما يكفي من المأوى والملبس». فكانوا يقولون: «ماذا تقصدون؟ لقد جمعنا هذه السترات، وعليكم الآن تسليمها لهم». ثم ينصرفون وقد ملأهم الغضب الناشئ عن دوافع أخلاقية بسبب عجز القوات المسلحة.

وبعد ذلك بيوم أو اثنين، يظهر أعضاء المنظمة الخيرية على التلفاز في برنامج صباحي ليعلنوا شكواهم: «لقد جمعنا ملابس للأكراد المعذبين، وعندما ذهبنا بها إلى هناك، بعد تكبد نفقات كبيرة، قضينا وقتاً عصيباً مع قواتنا المسلحة. وها قد حاولنا أن نصنع خيراً، لكن القوات المسلحة لا يمكنها تنظيم أمورها».

لا يمكنني إغفال النوايا الحسنة الواضحة لأي منظمة بذلت الوقت والمال لمساعدة الأكراد. لكننا كنا نقوم بعملية واسعة ومعقدة بموارد محدودة وعن طريق بنية تحتية بالغة التدني. وليس من الحكمة أن تصل فجأة ثم تتوقع خدمة فورية، بصرف النظر عن مدى حسن نواياك.

وعلى العكس من ذلك نجد طريقة تعامل الصليب الأحمر مع قوات الطوارئ الدولية؛ إذ إن نصيحتهم هي: «أعطونا أموالاً، ولا تعطونا ملابس أو غذاء». فإننا نعرف أين نجد الملابس والأطعمة ونعرف كيف نرتب أولويات جلب الأشياء، لكن جلبها في عجلة يعوق النظام».

خرجت من تجربة عمليات الإغاثة بعدما أدركت أن المنظمات غير الحكومية هي شركاؤنا الجدد في ساحة المعركة. وعلينا أن نتعلم كيف نعمل معاً. وكانت القوات المسلحة والمنظمات غير الحكومية على حد سواء يعرفون أن علينا إيجاد طريقة ما لإنهاء خلافاتنا واستيائنا - أو الحد منها على الأقل. وبدأت أسأل نفسي والآخرين، كيف نفعّل ذلك؟ هل نفض الصراع فحسب؟ هل هي مسألة حل خلافات؟ هل نستمر ونتبادل المعلومات؟ هل يمكننا حقاً أن نقوم بالتنسيق معهم على أي مستوى؟ أم أن الأمر سينتهي بناءً إلى مأزق وتأخذ الأمور مجراها الطبيعي؟

كان لدينا تحدٍ بالغ التعقيد يتطلب إيجاد جسر للتواصل بين منظمة شديدة التنظيم وقطيع من القطط، (وقد استعرت هنا صورة مجازية من صديق كان مساعد وزير الخارجية السابق تشيستر كروكر).

وكما هي الحال دائماً، شخصيات البشر هي المفتاح. وفي شمال العراق كان لدينا في معظم الأحيان خليط رائع من الشخصيات - أناس يشاركون بجدية في حل المشكلة، ويرغبون في التنسيق كي ينجح الأمر.

لكن هناك بضع أنواع سيئة من الشخصيات كانت عاملاً أساسياً في تعطيل النظام. (ففي الصومال، كما شاهدت بعد ذلك، كان هناك عدد هائل من الشخصيات المتعارضة، عدد هائل من الناس الذين لا يرون ما يجب عمله من المنظور نفسه).

في شمال العراق، بدأنا بإقامة صلات متبادلة لا تمثل تهديداً - فرق اتصالات خاصة بالقوات المسلحة - مع المنظمات غير الحكومية. ثم توصلنا لاحقاً لفكرة إنشاء ملتقى للتنفيذ عن نقاط خلافاتنا واختلافاتنا والتشارك في الأفكار والخطط. وكنا نتوقع الحد من الخلافات على الأقل، وربما أيضاً توليد قدر من التعاون، إن لم يكن التنسيق. ولأن المنظمات غير الحكومية تريد أن تحدد لنفسها المسار الذي ينبغي أن تسلكه، وما ينبغي عليها عمله، ولا تريد أن تخضع لخطة رئيسة - بخاصة إذا كانت خطة تديرها القوات المسلحة - حاولنا إيجاد منظومة تعاونية ليست معدة سلفاً. وكان الملتقى الذي قمنا بإنشائه يسمى «مركز العمليات المدنية - العسكرية» الذي يديره ضباط الشؤون المدنية لدينا، قد وفر منتدى لحل المشكلات مع المنظمات غير الحكومية.

كانت معرفة كيفية التواصل مع المنظمات غير الحكومية والوصول لمستوى معين من التنسيق والتعاون معها تتطلب قدراً هائلاً من العمل، وكانت تلك أهم وظائف «مركز العمليات المدنية - العسكرية». لكن حتى مع ذلك، بالنظر إلى الطريقة التي كان علينا أن نتعامل بها مع كل الثقافات، كان لدينا دائماً هدف أعمق: «دعني أفهم ما تقوم به؟ ومن تكون؟ وماذا تعمل؟ وكيف تعمل؟ وكيف يمكنني مساعدتك؟ وكيف يمكن أن تساعدني؟».

لقد شهد شمال العراق أول استخدام لمركز العمليات المدنية - العسكرية باعتبارها أرضاً محايدة، حيث يمكن للشؤون المدنية أن

تتفاعل مع المنظمات غير الحكومية. وفيما بعد استخدمنا مراكز العمليات المدنية - العسكرية في الصومال وهاييتي (برغم أنهم في الصومال كان عليهم التكيف مع أوضاع أشد تعقيداً من تلك التي كانت في شمال العراق). وصارت هذه المراكز الآن مقبولة نظرياً، وهي أساس المستحدثات الأخرى القائمة في الوقت الحالي.

فمنذ بضع سنوات، على سبيل المثال، عندما قمت بقيادة قوة الحملة البحرية الأولى، بدأت برنامجاً تدريبياً وتعليمياً، أطلق عليه «إميرالد إكسبريس»، وقد صمم ليخاطب بصفة خاصة المشاركة العسكرية في هذا النوع من العمليات. كنت أود جلب مهنيين «مخضرمين» مع صناع السياسة والمخططين. ودعوت عدداً كبيراً من المنظمات غير الحكومية للحضور والمشاركة. ففي رأيي، كان أمراً جوهرياً بالنسبة للمنظمات غير الحكومية وللقوات المسلحة أن يفهم كل منهما الآخر، وإيجاد البنى والإجراءات المناسبة للعمل بعضهم مع بعض في ساحات المعارك الجديدة. وقد أثمر «إميرالد إكسبريس» نتائج ملموسة، وأحرزنا تقدماً واضحاً منذ ذلك الحين، لكن الطريق لا يزال طويلاً أمامنا.

لقد التقيت مؤخراً بماري ماكليمنت، رئيسة جمعية «إنترأكشن» وهي جمعية للمنظمات غير الحكومية في الولايات المتحدة، لمناقشة قضايا كانت تنوي إثارتها مع الأركان المشتركة تتعلق بالأعمال الإنسانية التي تقوم بها القوات المسلحة والمنظمات غير الحكومية في أفغانستان. وكان من بين ما أثارتته من قضايا مسألة ارتداء العسكريين

ملابس مدنية أثناء القيام بالمهام الإنسانية (مثل توزيع الأطعمة). كان واضحاً بالنسبة لي أن هناك احتمال أن العسكريين يفعلون ذلك، ليظهروا في صورة أقل رهبة، ولتشجيع الأفغان على تقبل المساعدة لكن هذا في رأي المنظمات غير الحكومية يجعل الفرق بين العسكريين والمدنيين غير واضحة ويعرضهم للخطر. وكانوا يريدون تمييزاً واضحاً بين الأفراد العسكريين وبين العاملين لديهم.

هذا مثال شهير لعمل حسن النية، ينتج عنه ارتباك أو سوء تفسير، وهو أيضاً مثال للحاجة إلى أن نأخذ في الاعتبار كل العواقب المحتملة. ولا يمكن أن نصل لهذا النوع من الفهم إلا بالتعاون والتواصل.

البعد الإنساني

في العمليات العسكرية يتم تدريبنا على أن نضع في الحسبان العوامل التي تؤثر تأثيراً مباشراً على إنجاز المهام العسكرية مثل الطقس، والتضاريس، وقوات العدو، والقوات الصديقة. وفي عمليات مثل عملية «توفير الراحة» الخاصة بإغاثة الأكراد شمال العراق، ظهرت عوامل جديدة غير مألوفة مع خليط من العوامل التقليدية في تقديرنا للموقف. ومثال ذلك، قدمت مراكز مكافحة الأمراض إسهاماً حيوياً كما فعل المسؤولون عن الطب الوقائي. كان علينا أيضاً التعامل مع اللاجئين، وهو أمر يتطلب عمليات خاصة وإجراءات لم نعود عليها.

بمرور الوقت حل الربيع محل الشتاء، وكنا قد حققنا الاستقرار في المخيمات، وكان لدى كل فرد في الجبال ما يكفيه من طعام، وتوصلنا

إلى السيطرة على الأزمات الصحية. لكن كان لا يزال لدينا مئات الآلاف من اللاجئين الأكراد في الجبال. وتساءلنا: «ماذا نعمل معهم؟». كما كان متوقعاً، اتخذنا قراراً قصير المدى: «حسناً، لدينا نصف المليون لاجئاً على الحدود العراقية التركية، والأترك لا يريدونهم هنا. وبمجرد أن نجعلهم يستقرون في الجبال، سنأخذ قطاعاً صغيراً من شمال العراق، ونقيم مخيمات جيدة شبه دائمة للاجئين هناك - تتسع لإقامتهم جميعاً - وتجعل الحياة أفضل بالنسبة لهم».

لم يكن لدى منظمة اللاجئين التابعة للأمم المتحدة أي حماس لتلك الفكرة. فقد تعلمت المفوضية العليا للاجئين التي تتعامل مع ملايين اللاجئين حول العالم درساً مهماً عبر ما يزيد عن خمسين عاماً من الخبرة: لا مخيمات دائمة، ولا لاجئين دائمين. فإن الإبقاء على الناس بوصفهم لاجئين إلى الأبد لا يجدي أي نفع بالنسبة لهم، ووجودهم، سواء تم التسامح معه أم لا، يعد كابوساً لأي فرد له علاقة بالأمر، كما بينت التجربة الفلسطينية منذ زمن طويل.

مع ذلك بدأنا إقامة المخيمات، في أحد الأودية على الجانب العراقي من الحدود. وكان هذا على الأقل يحل مشكلات عاجلة؛ إذ كان سيخرج اللاجئين من تركيا، ويضعهم في أراضٍ إقليمية كردية لصيقة بأوطانهم الحقيقية، لكن إعادتهم إلى أوطانهم الفعلية كان يتطلب إجلاء الجيش العراقي عن الأراضي الكردية، ربما بالقوة، ولم تكن واشنطن مستعدة لذلك بعد.

أقيمت مخيمات مريحة، على نحو نموذجي، وكنا نريد ضمان توفير كافة الاحتياجات. فالجيش الأمريكي يعرف كيف يقيم مخيمات ممتازة. عادت الأمم المتحدة إلينا وقالت: «توقفوا! هذا خطأ ولن ينجح، فنحن لا نريد مخيمات أخرى، ولا نريد إضافة العراق إلى القائمة. إننا نريد أن نجعلهم غير لاجئين، علينا أن نعيد هؤلاء القوم إلى أوطانهم».

وأضافت قائلة: «لكن إن كان لابد أن تقيموا مخيمات فاجعلوها مخيمات مؤقتة، اجعلوها بسيطة للغاية. ولا توفرنا لهم إلا الحاجات الأساسية. ولا تشجعوا الناس على البقاء فيها». كانوا على حق على كافة الأصعدة، لكننا لم نفهم بعد ما كانوا يقولونه لنا تمام الفهم.

كانت عقبتنا التالية هي إقناع الأكراد بالنزول إلى المخيمات. ولأن معظمهم لا يزال رهن التجربة المرعبة التي اضطرتهم للجوء إلى الجبال في المقام الأول، لم يوافق إلا قليل منهم على المخاطرة بمغادرة مكان يبدو آمناً إلى حد بعيد.

لكننا كنا نعرف أننا لو استطعنا إقناع شيوخهم بالمجيء، فسيتبعهم بقية الأكراد. حاولنا عرض أفلام فيديو، فلم يقتنع شيوخ القبائل أيضاً، فاقترحنا أن يرسلوا وفداً من الشباب ليتفقدوا المخيمات بأنفسهم، ووافق الشيوخ على ذلك.

وبالطبع، كانت المخيمات التي أقيمت مخيمات عسكرية - فكلها في خطوط مستقيمة ومتقاطعة ومنظمة بصورة منهجية محددة، وتطل

على أماكن جميلة. أخذنا الوفد إلى المخيمات فتفحصوها وهزوا رؤوسهم وقالوا لنا: «هذا كله أمر جميل، لكن لا طائل منه، لأننا لا نعيش بهذه الطريقة». لا يريد الأكراد صفوفاً عسكرية مستقيمة وجميلة، فهم يحبون مجتمعاتهم وما يجاورها أن تتجمع حول مركز العشيرة والمراكز القبلية، في شعاب مسدودة وجهتها للمركز.

قمنا بإعادة تصميم المخيمات، فقبل الأكراد التغييرات ووافقوا على الانتقال إليها. وفي تلك الأثناء، بدأنا ندرك أن الأمم المتحدة كانت على حق طوال الوقت، فحلول الوسط لا تعتبر حلاً.

لم تكن المخيمات التي أقمناها حلاً دائماً. وقد كانت المفوضية العليا للاجئين تردد بالحاح: «هذا لا يكفي، دعوهم يعودوا لوطنهم، إننا نعتزف أنها مهمة صعبة، إذ عليكم أن تتقلوا نصف المليون نسمة من الجبال، والطرق بدائية وخطيرة». فهي أقرب إلى الممرات الوعرة أو المسارات المجاورة للمنحدرات العنيفة - في حين لا يزال الأكراد يعانون من الأعمال الإرهابية، التي جعلتهم يلوذون بالجبال في المقام الأول. ربما لن تتمكنوا من تحقيق هذا الانتقال في خطوة واحدة. لكن إن كان لابد أن تقيموا مخيمات لإيوائهم، فلا تجعلوها مخيمات مريحة، بل يجب أن تعطوا الناس رسالة واضحة بأن هذه المخيمات مؤقتة. إنها مسألة الجزرة والعصا، يجب أن تتركوا آثاراً من فتات الخبز تقودهم في العودة إلى ديارهم».

كان الوجه الآخر لهذه العملة هو احتلال الجيش العراقي لأراضٍ كردية.

وكانت إعادة الأكراد إلى ديارهم معناها إخراج العراقيين منها، وإنشاء منطقة أمنية شمال العراق، ولم تكن الحكومة العراقية في بغداد لتوافق على ذلك. ولم يكن لدينا ما يضمن أنهم لن يتخذوا موقفاً للمقاومة والقتال هناك. وبرغم أننا كنا سنحاربهم بالتأكيد لو اضطررنا لذلك، كنا نفضل تخويفهم. ومهما كان الأمر، كان إخراج القوات العراقية من شمال العراق سيستلزم تعزيز قواتنا نحن.

خلال ذلك، قام ضباطنا في شمال العراق بإقامة علاقات متبادلة مع قوات البشمركة، وإقامة صلات قوية مع برزاني وطالباني ومنظمتاهما السياسية. وقد أثبتت هذه الصلات فاعلية شديدة خلال الأسابيع التالية. وفي نهاية الأمر حصلنا على ما أردنا من العراقيين، لكن ليس دون ضغوط ومتاعب ولحظات توتر. فلم يتخل العراقيون عن الأراضي الكردية بسهولة ولا عن طيب خاطر.

دور جديد للقوات المسلحة

عدت إلى شتوتجارت في نوفمبر من عام 1991، بعد سبعة أشهر من مغادرتي لها من أجل عملية «توفير الراحة». وخلال تلك المرحلة أدركت أنني كنت مشتركاً فيما هو أكثر من مجرد نوع غريب من العمليات العسكرية، وهو نوع يختلف اختلافاً شديداً عن العمليات العسكرية - عملية «عسكرية» لم تعد القوات المقاتلة فيها تحتل مركز الصدارة، وتبذل الجهد الأكبر. لقد كانت عملية عسكرية تتطلب استجابات «عسكرية» لأبعاد متعددة لم تواجهها القوات المسلحة من قبل.

وسرعان ما ثبت أن المهمة التي قمنا بها في شمال العراق لم تكن أمراً شاذاً. فقد شهدنا هذه المهام مرات عديدة بعد ذلك. وعند إنجازها وجدنا أنفسنا مراراً وتكراراً في مواجهة وجه جديد للحرب، كان أبعد ما يكون عن الحرب كما عرفناها في السابق.

لقد ناضلت القوات المسلحة في هذه المهام خلال العقد التالي... حتى عندما أصبحت الآلة العسكرية هي الأداة الوحيدة التي كان يبدو أن دولتنا ترغب في استخدامها في مشكلات الاضطرابات المتفاقمة؛ فالقوات المسلحة أداة بالغة القوة، لكن لها حدود.

لقد عرفت هذه الأداة كيف تتعامل مع بعد الأمن في المشكلات التي واجهتها، لكنها كانت تنوء بصورة مطردة بعبء الأبعاد السياسية والإنسانية والاجتماعية والاقتصادية وإعادة البناء وغيرها. وفي حالات عديدة، لم تكن القوات المسلحة تولي هذه الأبعاد الأخرى نفس قدر الاهتمام التي كانت قادرة على تحقيق الأمن والحفاظ عليه. كانت القوات المسلحة مسؤولة عن أبعاد تتجاوز حدود طاقتها، إذ كان مطلوب منها أن تملأ فراغات لم تكن مؤهلة للملأها.

صار استخدام القوات المسلحة في هذه المهام مثار خلاف. ولم يبد أن مبادئ واينبرجر وباول في أواسط الثمانينيات الخاصة بتفويض القوات المسلحة، والتي تولدت عن دروس حرب فيتنام، تغطي مطالب هذه المهام الجديدة. فطبقاً لهذه المبادئ، كان لابد أن تكون ثمة مصلحة قومية حيوية على المحك قبل أن نتمكن من استخدام القوات المسلحة. كان علينا أن نستخدمها «لتحقيق النصر»، وكان لابد من وجود هدف

واضح، وأن نتلقى الدعم والتأييد من كل من الكونجرس والشعب. وكنا نحتاج لإستراتيجية خروج واضحة محددة، ونحتاج لاستخدام قوة ساحقة، وأن يأتي العمل العسكري بوصفه الحل الأخير. وكان يبدو أن هذه المبادئ وصفة تصلح لمهام في الحرب العالمية الثانية.

في حفل عشاء مع وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت، دعي إليه عدد كبير من الجنرالات والأدميرالات لمناقشة هذه التحديات الجديدة، عرضت أولبرايت هذا السؤال: «كيف نستخدم القوات المسلحة في مهام لها أهداف محدودة، وإرادة سياسية محدودة وموارد محدودة؟» كنت أعرف ما قصدته، كانت تسأل كيف فهمنا الحرب، وهل كان يمكن أن نعمل فقط من خلال النماذج القديمة التقليدية - التي يزداد التخلي عنها يوماً بعد يوم؟ أم كان يمكننا أن نفهم البيئة الجديدة، وأن نعمل فيها؟

في القوات المسلحة، عرفنا الحرب الكاملة. وعرفنا الاستسلام غير المشروط، وفهمنا الرد على أي هجوم علينا أو على مصالحنا الأساسية. وكان فهمنا للحرب وأمور الحرب، وعمليات التفكير في القتال والحرب، لها جميعاً أصل في نموذج وحيد - الحرب العالمية الثانية. فقد شكلت «الحرب المثالية» في صور عديدة معايير استخدامنا للقوات المسلحة وللعلميات العسكرية، ولا تتوافق هذه المهام الجديدة المربكة وغير المرتبة مع ذلك النموذج.

وبمرور الوقت كان العالم يزداد فوضى وارتباكاً، واحتاج سؤال الوزيرة أولبرايت إلى إجابة.

الوجه الجديد للحرب

منذ سقوط الإمبراطورية السوفيتية اندلعت نحو أربعين حرباً حول العالم، وكان القليل منها حرباً بالمعنى الذي يفهمه الأمريكيون عامة؛ دولة ضد دولة أو دول ضد دول. صدامات آلية ضخمة من قوة ضد قوة، ومجموعة من المعارك القوية، والتقدم والاستيلاء على عاصمة العدو، ومعاهدات السلام التي تليها احتفالات النصر. هذه الحرب الجديدة لها مدى أقل، وغالباً ما تكون القوات المتصارعة فيها غير منظمة، وعادة ما تكون الأسلحة خفيفة، والعنف وحشي، ونادراً ما تطبق القواعد والمبادئ القديمة؛ ويعاني المدنيون أكبر نسب الإصابات، ويصعب قياس التقدم كما يصعب تحديد الانتصار، كذلك فالقتال يدور في أجزاء من العالم لا يمكن إلا لعدد قليل من الأمريكيين تحييدها على الخريطة - في إفريقيا وآسيا وأجزاء من أمريكا اللاتينية والشرق الأوسط.

إن المد الشيوعي في القرن العشرين، والذي أوحى به وخطط له لينين و ماو وتشى جيفارا، وضع الأساس لحرب معقدة وغير متسقة سمحت لقوات أدنى عسكرياً بمواجهة قوات عسكرية أكثر حداثة وقوة، وإرباكها. وقد تعلم الأعداء الذين نواجههم الآن من هذه الخبرات، فلديهم الآن تكتيكات فعالة وتقنية وسخط شعبي لتحقيق أهدافهم.

هذه الصراعات الجديدة تثير القلق، لكنها عنصر واحد فقط من الأخطار الجديدة التي نواجهها، وربما يكون فيها عنصر عنف، لكن

العنف ليس مكوناتها الوحيد وليس بالضرورة أن يكون هو العنصر الأكثر أهمية في هذه الصراعات. فالأخطار الجديدة ليست محددة ولا واضحة؛ إذ تصاحبها كتلة متشابكة محيرة ومعقدة من العناصر السياسية والدينية والاقتصادية والعرقية والثقافية والصحية والبيئية، وتتعكس كل هذه العناصر في ساحات المعارك حيث يوجد قدر قليل من العنف أو لا يوجد عنف ظاهر.



رسمت الحرب العالمية الثانية صورة أمريكا للعالم في القرن العشرين، تماماً مثلما رسمت ثورتنا صورة أمريكا عند ميلاد الأمة، وكما أظهرت الحرب الأهلية أمريكا في القرن التالي. والحرب العالمية الثانية هي علامة دخولنا إلى مسرح العالم بوصفنا دولة عظمى وزعيمة من زعماء العالم، ولم نواجه شيئاً مثلها من قبل في تاريخنا.

كيف نفسر تأثيرها على الروح القومية لدينا؟ فعلى عكس أي حرب أخرى خضناها قبلها أو بعدها، كان لدينا وضوح أخلاقي، وضوح أمريكي كلاسيكي في تعبيره عن نظرتنا لأنفسنا. إننا لم نكن نمثل تهديداً لأحد، ولم نبين جيشاً لنحتل أحداً. فقد هوجمنا، وكانت طبيعة الشر لدى مهاجمينا واضحة، وكانوا هم المسؤولين عن هذا الهجوم الغادر، فقد كسروا القواعد المتعارف عليها.

كانت أمتنا محتشدة ومتحدة، فبنينا أنفسنا من لا شيء، وعبرنا المحيط، وقدنا قواتنا إلى قلب العدو، وسعينا للاستسلام غير المشروط

وحصلنا عليه. هزمنا العدو بشرف، واعترف بهزيمته واستسلم تماماً. ثم وصلنا إليه وانتشلناه، وأعدنا بناء مجتمعه ليصير مجتمعاً رائعاً.

وظهر لدينا أبطال - أودي ميرفي، إيريني بايل، رجال في يوم «د»، و«فريق الأخوة» و«جيلنا الأعظم». كانت قضيتنا عادلة، كنا جميعاً نمد يد العون للدولة، فاجتمعت الأمة، وكان الأمر رائعاً وواضحاً. فالحرب الطيبة - نموذج لما يجب أن تكون عليه الحروب.

أما المشكلة فهي أن النموذج يناسب الحرب العالمية الثانية، وليس صراعات السنوات التي تلتها من القرن العشرين.

كانت كل الحروب التي خضناها بعد الحرب العالمية الثانية - في كوريا وفيتنام وأفغانستان والعراق - تختلف اختلافاً كلياً عن تلك الحرب، كما أنها لا تماثل أيضاً تدخلاتنا العسكرية الأخرى في الصومال وهاييتي، ولا تشبه حتى الحروب التي خضناها قبل الحرب العالمية الثانية، مثل حرب الموز التي خضناها في جزر الكاريبي في عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته، أو حرب العصابات التي خضناها في وقت سابق في جزر الفيليبين.

لم نهتم بذلك، وتجاهلناه تماماً، فقد أصبحت الحرب في نموذج الحرب العالمية الثانية مجازاً يدل على شيء جاد وقاسٍ يقوم به الأمريكيون. فالأمريكيون لا يعملون للقضاء على الفقر أو للحد منه، بل أعلنوا الحرب على الفقر، وأعلنوا الحرب على الأمية وعلى الجريمة والمخدرات، وأعلنوا الحرب على الإرهاب. فعقلية الحرب العالمية الثانية تؤثر على كل مهمة واسعة النطاق تقوم بها الدولة.

لقد صارت خبرة الحرب العالمية الثانية لدينا مثلاً لكيفية تنظيم قواتنا العسكرية، وصارت نموذجاً لكيفية توقعنا للصراعات والكشف عنها. كما أصبحت مثلاً للعمليات القتالية الكبرى، ومثلاً لكيفية نظرنا للأعداء.

فعندما نريد الدخول في صراعات مثل العراق وفيتنام، لا بد أن يكون ثمة قضية، ولا بد أن يكون هناك شخص ما يقوم بالهجوم علينا، ويجب أن يكون لدينا أشرار نصورهم شياطين. فقد قام قادتنا بتلفيق حادثة خليج تونكين لتبرير حربنا في فيتنام، وكذلك لفقوا مسألة أسلحة الدمار الشامل السرية لصدام حسين وخطط تعاونه مع القاعدة لتبرير حربنا على العراق. كان علينا أن نلفق الأساس المنطقي، وأن نتبع النموذج.

من هنا نتوقع أن يكون النصر حليفنا، ولا بد أن يتبع الأشرار القواعد كما نراها نحن، وعليهم أن يعترفوا بالهزيمة عندما نقول: إنهم قد هزموا، عندما هزمنا قواتهم العسكرية المنظمة.

لم ينجح الأمر بهذه الطريقة، فعدد قليل من التدخلات العسكرية التي قمنا بها بعد الحرب العالمية الثانية هي ما كان لها نتائج كاملة أو مرضية. وعلى عكس الحرب العالمية الثانية، تركنا ساحات هذه المعارك بعدما حظينا بنتائج لا نحباها، أو على أفضل تقدير بعد حلول مؤقتة أو جزئية فحسب.

إن مجموعة القواعد القديمة - التي تستظل بها القوات المسلحة بصورتها المنظمة في ساحة معركة ما وفقاً لاتفاقية جنيف - تصف

شكلاً نظامياً للحرب، كان يحظى بقدر جيد من الممارسة خلال القرن العشرين. فالمقاتلون الذين دخلوا ميدان المعركة وأراقوا دماءً شريفة، ربما كان لديهم وعي بالقضايا السياسية أو القضايا الثقافية أو القضايا الأخلاقية أو القضايا الاقتصادية أو القضايا التاريخية، لكن هذه القضايا أو تلك لم تلوث السلوك الشريف للقتال.

والآن، ذهب الحرب المثالية القديمة القائمة على القواعد والمبادئ بلا رجعة. فقد تشكلت وتحولت إلى كل أنواع القوى المحركة الفوضوية الأخرى. ولا يمكنك أن تفصل القضايا السياسية والثقافية والتاريخية عن الدماء الشريفة التي تراق في ميدان المعركة. والآن، ينبغي أن يفهم جميع من يتخذ العسكرية مهنة له كل هذه الأبعاد الأخرى، وأن يدرك مدى ملائمة الجزء الخاص به من العمل لإجمالي الجهد المبذول.

واليوم، إذا قامت الولايات المتحدة بأي عمل عسكري، فإن آثاره تتجاوز البعد العسكري. وإن قامت الولايات المتحدة بعملية عسكرية لاستئصال المتمردين في قرية ما، فإن ما نفعه لأفراد القبائل الذين يعيشون في القرية يمكن أن ينفّرهم منا، لكننا لو اخترنا طريقة أخرى لاستئصال المتمردين، فقد نبني الثقة في القبيلة ونضمهم إلى صفنا.

كانت قوات المارينز في الصومال تقوم بعملية في منطقة تسمى كيسمايو، حيث واجهنا مشكلات عديدة. اتصل قائد المارينز من إحدى القرى: «إننا نحاصر مسجداً نعتقد أن به أسلحة، وحين شرعنا في الدخول إليه سد الإمام باب المسجد، وقال لنا: «لا يمكن أن تدخلوا هذا المسجد، وإن فعلتم ستفتح عليكم أبواب جهنم». فقلت للقائد: «قل

للإمام انتظر دقيقة حتى نتمكن من التحدث إلى بعض جنودنا من المسلمين في قوات التحالف، وقل له: إننا سنقوم بإنزال مجموعة صغيرة من الجنود المسلمين وسيدخلون المسجد».

قام القائد بشرح كل هذا للإمام. وبعد ذلك بدقائق قليلة، اتصل بي القائد هاتفياً، وقال: «يقول الإمام: إنك إن أردت أن نفعل ذلك، فإنه يرغب في أن يدعنا ندخل المسجد، لكنه يطلب ألا نقتحم المكان. وسوف يأخذني ومعني عدد قليل من الرجال إلى الداخل ليريني أنه لا توجد أسلحة فيه، وسيتركنا نبحت عن كل ما نريد».

وهذا ما حدث. ولم يجد الرجال سوى سلاح واحد من طراز إيه كيه 47.

كانت الموافقة على احترام الثقافة والدين كافية لحل المشكلة.

فإن أي رجل عسكري يفشل في فهم المستويات الدقيقة لهذه القوى المحركة سيخفق في إنجاز المهام التي تواجه قواتنا المسلحة اليوم. وإلا ستتكرر فيتنام بكل بساطة: «فقط قم بقتل عدد كافٍ من الأعداء، وبذلك تحقق النصر». وهذا لم يعد يجدي نفعاً.

ربما تتحول حربنا الحالية في العراق إلى صورة مكررة من فيتنام، كان الجيش هناك ينتقل من عملية إلى أخرى، ويؤكد قادتنا في واشنطن أننا نتقدم بقوة من نجاح إلى نجاح، مع ذلك فإن جنودنا ممن هم في التاسعة عشر أو العشرين من العمر يسألون الآن سؤالاً صعباً: «يمكنني أن أنتصر في أي معركة، لكن هل أنتصر في هذه الحرب؟».

سمعت هذا السؤال من قبل في فيتنام، وكانت الإجابة بالنفي. أما إجابتي على هذا السؤال بالنسبة للعراق فهي: «لست أدري». فلا يمكن لأحد أن يقول لجنودنا إن كانوا منتصرين أم لا. لكن المقارنات مزعجة. إن الحرب الجديدة تتطلب نوعاً جديداً من المقاتلين. فلم يعد كافياً أن تكون ضابطاً كفوفاً في القوات المسلحة، بارعاً في فنون الحرب، بل نحتاج لتوسيع ثقافتنا، ونريد رجالاً ونساء ناهضين، وضباطاً يكونون جزئياً علماء اقتصاد وعلماء في السياسة وعلم الإنسان، وتكون لهم دراية جزئياً بأنواع العلوم الأخرى، فلا يكفي أن تكون على دراية عسكرية وحسب؛ إذ علينا أن ندرك كيف يتوافق ذلك مع الصورة الأكبر. وإن فكرت فيما أقوم به على المستوى العسكري - الذهاب إلى هناك وقتل الناس وتحطيم الأشياء - هو الأساس في وظيفتي، إذن فإنني لا أفهم وظيفتي.

إن على الوحدة العسكرية التي يتم إنزالها في العراق إدراك من هم الشيعة ومن هم السنة والأكراد والكلدانيين والتركمانيين والسيريان، وعلى أفراد هذه الوحدة فهم القبائل وعلاقة بعضها ببعض؛ عليهم أن يفهموا التاريخ.

عندما كنت في الصومال، كان الصوماليون يهاجمون القوات المصرية والنيجيرية باستمرار، وكان علينا أن نعرف السبب وراء ذلك، فعلمنا أن الصوماليين يكرهون النيجيريين، لأنهم منحوا الديكتاتور الفاسد المخلوع سياد بريّ اللجوء السياسي، وعاش بري في منفاه في نيجيريا.

وثبت أن المصريين كانوا مكروهين بسبب نظرية مؤامرة شائعة جداً بين الصوماليين، وهذه النظرية تقول بأن المصريين قد عقدوا اتفاقاً مع سياد بري على نقل مليون مصري من جنوب مصر للاستيلاء على وادي جوبا، وطرد المزارعين الصوماليين من معظم الأراضي الخصبة في الصومال.

ماذا يعني ذلك بالنسبة لي؟ يعني أن علينا أخذ هذه المواقف في الحسبان عند اتخاذ قرارات عسكرية. «فأين أضع قواتنا النيجيرية أو قواتنا المصرية هنا أم هنا؟» كان من الواضح أن عليهم أن يكونوا حيثما يكون الاحتكاك مع الصوماليين في أدنى حد ممكن.



في القرن الواحد والعشرين قد نجد أنفسنا مشتركين في صراعات لا يوجد فيها عنف متبادل. فقد يهاجم عدو ما نظم معلوماتنا، وربما يقوِّض عدو آخر نظمنا الاقتصادية، أو يستخدم شبكة المعلومات الدولية كي يشوه صورتنا، ويخلق الشك والكراهية، ويشجع العنف ضدنا. وقد لا يأتي العنف ضدنا من أعدائنا مباشرة وإنما ممن يثيرهم أعداؤنا ضدنا.

وحتى هؤلاء الخصوم الذين اختاروا الدخول معنا في صراع عنيف لن يتعدوا عن الساحة الرئيسية ويقاتلوا بشرف. فإننا دولة كبيرة جداً وقوية للغاية، ولدينا مزايا لا حصر لها، والقتال معنا بطريقتنا يضمن انتصارنا.

ماذا سيفعلون؟ إنهم سيأتون إلينا في صورة غير منظمة، ولن يؤدوا اللعبة حسب قواعدنا، ولن يواجهوا مواطن قوتنا – من دبابات

ومدفعية وطائرات، بل سيضربوننا حيث نقاط ضعفنا. وسنجد أنفسنا نقاتل في ساحات معارك أشد غموضاً مما نحب، وسنرى تكتيكات لا تستغل مواطن قوتنا - الإرهاب وأعمال التمرد والعصيان المدني والحروب الأهلية وغيرها من الأعمال القذرة. وربما يهاجموننا بالجمرة الخبيثة أو الطاعون، وقد يهاجمون البيئة أو قواعد البيانات وغيرها من مخازن المعلومات، وقد يقطعون إمدادات البترول الخاصة بنا، أو يسيطرون على مواردنا الأساسية، حتى يمنعوا عنا، وربما يهاجمون نوعية الحياة عندنا بطرائق لا يمكن تخيلها الآن.

عندما ترأست القيادة المشتركة، هددنا بالقيام بهجمات جوية قوية ضد العراق لإجبار الحكومة العراقية على الإذعان لشروط كانوا قد وافقوا عليها في نهاية حرب الخليج الأولى، ولم يتراجعوا عن موقفهم أكثر من مرة فكان علينا تنفيذ الهجمات.

كانت التوترات مع العراق تزداد كلما اقتربت المواعيد النهائية المحددة، وكان علينا نشر بعض القوات، وإطلاق بعض الطائرات، واستعراض بعض العضلات. وبرغم أننا لم نكن قد أطلقنا طلقة واحدة، كنا نبين لصدام التحركات التي كان يعرف جيداً أنها قد تكون تمهيداً منا لبدء الهجوم.

وعندما قمنا باستعداداتنا، أتى جيهه - 6 - J - 6 وهم ضباط الاتصالات ومدير نظم المعلومات الذين يعملون معي - وقالوا لي: «لقد تعرضنا اليوم لـ 1220 ضربة لنظم الحاسب عندنا، وذلك بزيادة 640 ضربة عن أمس».

وكلما ازدادت التوترات مع العراق، كانت نظم الحاسب لدي تتلقى عدداً أكبر من الضربات من قرصنة الحواسيب «الهاكرز». هل كان هذا من فعل صبية في السادسة عشر من عمرهم من ميونيخ؟ ربما.



بعد أن أدركت وزارة الدفاع بأن العالم قد تغير (برغم أنني لا أعتقد أنها لم تفهم كيفية هذا التغير بعد)، أعادت صياغة تعريفاتها للعمليات العسكرية. وقد جاءت هذه التعريفات في فئات ثلاث. ولنلقي نظرة أولاً على التعريفين الذين تفهمهما وزارة الدفاع جيداً.

1. عمليات القتال الكبرى: ويقصد بها «الحرب» بمعناها العادي المعروف.

3. أنشطة الدعم العسكري: ويقصد بها «المشاركة» كما فهمتها إدارة كلينتون - التدريب وأنشطة الدعم العسكري وما شابه.

ثم تأتي كتلة مشوشة كبيرة وسط الموضوع، ليس فيها اتساق يسمح بالتعريف:

2. هذه الفئة تدرج تحتها كل العمليات من المهام الإنسانية إلى حفظ السلام إلى فرض السلام والتعامل مع الصراعات الثانوية، التي تقترب من حافة الحرب أو العمليات الكبرى. ويعي مفكرو البنتاجون الآن الطبيعة العامة لهذه الصراعات، ويرون أن لها أكثر من بُعد، لكنهم يلاقون مشقة في إيجاد طرائق لتصنيفها تصنيفاً دقيقاً.

في وقت ما كان البنتاجون يسمي هذه الأعمال «موتوا»، ثم أصبح مصطلح هذه الطريقة هو «ساسو» (SASO) أي عمليات الأمن والاستقرار. وهي تسمى الآن عمليات غير نظامية، ولا يمكنهم تحديد اسم يناسب الموقف، فهم يفهمون العملية «بالنظامية» أي الحرب التي تلي نموذج الحرب العالمية الثانية - الحرب الحقيقية. ثم تأتي كل أنواع الأعمال التي تحمل أسماء مختلفة - الأعمال غير الحربية - الأعمال القذرة الكريهة مثل أعمال التمرد، وعمليات السلام، وعمليات الطوارئ الإنسانية المعقدة. ولا تتناسب هذه الأسماء مع العمليات التقليدية الرئيسة لنموذج الحرب العالمية الثانية، ونهاية طيف العنف الذي كنا مستعدين له تماماً ومسيطرين عليه.

وبرغم ضرورة تغيير الطريقة التي نرى بها الصراع ونفهمه، وأن تلك الرؤية ستحدث حتماً تغييراً في الأساليب التي «نحارب» بها هذه الصراعات، فإن بعض خصائص الأسلوب الذي نحارب به لن تتغير لأنها جزء لا يتجزأ من القيم الأمريكية والشخصية الأمريكية.

فنحن أولاً نتسم بحساسية تجاه فقدان الجنود أو جرحهم. فجنودنا ليسوا وقوداً للمدافع أبداً. ولا نعتقد مطلقاً في السيطرة على ساحة معركة ما بتكوين قوات هائلة من الجنود يذهبون بلا رجعة. لذا نبذل كل ما في وسعنا لتقليل عدد القتلى والجرحى من جنودنا ومن الأبرياء.

ثانياً، إننا أقرب إلى استخدام التكنولوجيا، فلأننا نريد تقليل الإصابات، من قتلى وجرحى في صفوفنا، نستخدم تقنياتنا في

السيطرة على ساحة المعركة، ونريد أن نستغل التكنولوجيا لنحصل منها على أقصى ما يمكن.

ثالثاً، إننا نحب ساحات المعارك الممتدة، ونحب التحكم في إيقاع العمليات، ونحب إلقاء أشياء عديدة على العدو، لا يمكنه التغلب عليها. ونحن لا نمد ساحات المعارك لتشغل حيزاً مادياً وإيقاعاً عميقاً فحسب، بل نريد أيضاً مدها مع الحلفاء، وحملات المعلومات (العمليات النفسية).

رابعاً، إننا نريد صراعات قصيرة الأجل مع سمو أخلاقي واضح في قضيتنا، ودعم شعبي كامل، وأهداف محددة ومترابطة ومتسقة. ونحن لا نحب الصراعات طويلة الأمد ذات الأهداف الغامضة والتخبط الشعبي فيما يتصل بقضيتنا ومسوغاتنا.

جاءت قيادة البنتاجون في إدارة بوش الحالية إلى الحكم بقصد إجراء «تحول» تأخر كثيراً للقوات المسلحة.

وبرغم أن الحاجة للتحويل كانت، ولا تزال، موجودة، كانوا يرون أن التغيير يتطلب حلولاً ذات تقنية عالية المستوى. وكان يمكن، في رأيهم، تخفيض الوحدات البرية للإنفاق على نظم الاستخبارات المتقدمة ونظم الاتصالات والأسلحة المعقدة بالغة الدقة. ودعت بعض الأقوال التي ترددت في المتاهة ذات الأضلاع الخمسة* فقط إلى وحدات قليلة من «الجندرمة» (الشرطة) محصنة ومسلحة بالأسلحة الخفيفة لمراقبة ميدان المعركة بعدما تقرر التقنية العالية القتال.

* يقصد الكاتب «البنتاجون». (الترجمة)

وأعتقد أنه لو أمكننا تحويل كل مشكلاتنا ببساطة إلى نقاط مستهدفة، يمكن أن ينصب عليها تركيزنا بكل سهولة، فقد ينجح الأمر. لكن العالم ليس بهذه السهولة.

والآن صار لهذا البنتاجون نفسه رؤية أحدث. فهم يريدون زيادات في قوى الوحدة البرية في جيش الولايات المتحدة وقوات المارينز، كما يريدون إرساء مبدأ جديد «للحرب غير النظامية».

يواجه قادة البنتاجون المشكلة المزدوجة الخاصة بالإعداد لوجود متوقع لمنافس ند لتحدينا - مثل الصين أو التحالف الصيني الروسي - والحاجة إلى قوات قادرة على العمل في تلك المشاريع غير النظامية. وهم يواجهون معضلة مطلبين عسكريين، يختلف كل منهما عن الآخر اختلافاً بيناً. إن الموارد محدودة بشكل واضح. فهل نقبل المخاطرة ونستعد مبدئياً لمطلب منهما؟ أم ننشئ قوتين عسكريتين؟ هل يمكننا تحمل تكلفة ذلك؟ أم نحيل العمليات غير النظامية إلى دور إضافي أو ثانوي في العمل.

ونستمر برغم الصعوبات.

إنها أسئلة صعبة.

فنحن لا نعيش في عالم أجدادنا، ولا يمكن أن يكون لدينا جيش أجدادنا، لقد احتفظنا في الأساس بنسخة مصغرة من جيش الحرب الباردة، الذي هو في حاجة ماسة إلى تحول تجديدي، فإننا لا يمكن أن نواجه تحديات اليوم بتصميم وتعاليم وتدريب ومعدات وثقافة قادة قوات القرن الماضي.